14 me Année No. 695

Lundi — 28 — 10 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٩٥ «القاهرة فى يوم الإثنين ٣ ذو الحجة سنة ١٣٦٥ — ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٦» السنة الرابعة عشرة

هـــذه هى الأغلال

للأســـتاذ عباس محمود العقاد

المسلمون فى حاجة إلى جرعات قوية من قبيل هذه الجرعة التى ناولهم إياها صاحب الفضيلة الأستاذ عبد الله على القصيمى فى كتابه «هذه هى الأغلال».

لأن الذين يحجمون عن مساعى الحياة اعتقاداً منهم بتحريمها إنما يخرجهم فى هذا الوهم عاملان ضروريان، وهما عظة الحوادث وعظة المرشدين، وأحق الناس بإسداء هـذه العظة إليهم من يصححون لهم الوهم بأسناد من الكتاب والسنة النبوية، ومن يرشدونهم لأنهم متدينون يفهمون الدين على وجهه المستقيم، لا لأنهم ينكرون الأديان فلا يلتقون بهم فى أصل من أصولهم التى يتقبلون منها الحجة والدليل

والكتاب بحق كما وصفه مؤلفه الفاضل «ثورة فى فهم العقل والدين والحياة» لأنه يهجم على سلطان غشوم هو سلطان الجهل، وبمعقل حصين هو معقل العادة، وجحفل مجر هو جحفل الغوغاء وأشباه الغوغاء، فيرفع السيف والمعول بغير رهبة ولا هوادة، ويعتمد سيفاً واحداً ومعولا واحداً فى هذه الثورة الجريئة، وهما سيف اليقين ومعول البرهان.

فهو يشن الغارة الشعواء على من يقدسون البلاهة ويوجبون على الناس الكسل باسم الاتكال على الله، ويحرمون تعليم المرأة وتدريبها على فرائض الأمومة والرعاية الاجتماعية، ويوهنون ثقة الإنسان بنفسه، وينكرون الحكمة القديمة والعلم الحديث، ويزعمون أن الزمن يتأخر ولا يرجى فيه من أبناء اليوم والغد رجاء يضيفونه إلى تراث السلف ومآثر المتقدمين

وقد استند فى كثير من معارض النقد على آيات من الكتاب وأمثلة من سير الأنبياء، وأسانيد من المنطق السليم، ولم يبال بالسمعة الموروثة ولا بالأنصاب المرفوعة ولا بالأكاذيب المتواترة، فهاجم أناساً يحسبون من الأئمة المقدسين عند العامة وأشباه العامة، وذب عن فلاسفة غير مسلمين لم يشهدوا عهد الأديان الكتابية مثل أرسطو وأفلاطون

فلما روى هذه الأبيات:

من أنت يا رسطو ومن ... أفلاط قبلك «يا مبلد»[1]

ما أنتمو إلا الفرا ... شى رأى السراج وقد توقد

قدنا فأحرق نفسه ... ولو اهتدى رشداً لأبعد

عهد لها قائلا إنهم «قالوها فى مذمة أولئك الرجال الذين حاولوا فى عصور سحيقة أن يضعوا اللبنات الأولى فى بنيان هذه الحضارة ...». وعقب عليها مستنكراً أن يكون هؤلاء الرجال

(١) وقد رواها الأستاذ «قد تجدد»

الباحثون « حكمهم حينما أرادوا الدنو من المعرفة ومن العلم حكم الفراش الذى يرى النور المتوقد فيثب عليه »

ثم استطرد بعد صفحات فقال : « ومن البلاء حقاً أنهم لم يُقصروا عند امتداح الجهالة بل قاموا — ببلاهة كثيفة — يمتدحون الجنون والبله والبُله والمجانين ... وهنالك قسم كبير من الأولياء كُتبوا فى الطبقات يسمون بالمجاذيب أو بالأولياء المجاذيب ، وقد أورد الشعرانى فى كتابه طبقات الأولياء الكبرى أسماء طوائف كثيرة من هؤلاء المجذوبين . وكذلك صنع غيره »

أما الفصل الذى تناول فيه موضوع المرأة بعنوان : إنسان هى أم سلعة — فقد قابل به بين أقوال المتطرفين فى الحجر عليها وأقوال المتطرفين فى تخويلها حقوق العمل والحرية ، ووقف بين الطرفين وسطاً يعدل بين هؤلاء وهؤلاء ، ولكنى أحسبه لو خير بينهما لآثر الإطلاق على التكبيل بقيود الحجر والجمود

***

ونحن نوافق الأستاذ القصيمى على الهدف الذى يرمى إليه ، وعلى الآفة التى يشكو منها ، ولكننا نخالفه فى بعض الآراء كما نخالفه فى بعض العبارات ، ولا نخص منها بالذكر هنا إلا جانباً واحداً يلتبس فيه الرأى ويبدو فيه الظاهر على وجه غير وجهه الباطن ، أو وجهه الذى نطلع عليه بعد المراجعة والموازنة بين الحقائق المتقابلة . فرب حقيقة تقابلها حقيقة أكبر منها ، ورب ناحية نراها وحدها فإذا هى مستنكرة ، ونراها فى مكانها من مجموعة النواحى المختلفة ، فإذا هى لازمة لا غناء عنها

هذا الجانب الذى نخصه بالذكر فى هذا المقام هو كلام الأستاذ على فلسفة التصوف إذ يقول : « إن وجه الخطأ فى هذه الفلسفة أنهم اعتقدوا أن الروح والجسد عالمان مستقلان متعاديان ، وأن كلا منهما حرب للآخر ، وأن كلا منهما أيضاً إنما ينمو ويزكو على حساب الآخر . فإذا أهين أحدهما وعذب نما الآخر وترعرع وقام بوظيفته خير قيام ، وإذا أكرم وأريح وأجم أصاب الآخر بالعكس .. وهذه فلسفة عقيمة لا تقف أمام الحقائق . فإن الروح مهما اختلف فى حقيقتها وفى تفسيرها تزكو وتقوى وتقدر على أداء وظيفتها إذا صح الجسم وقوى واستراح ، وتضعف وتخبو وتعجز عن القيام بعملها إذا مرض الجسم أو تعب أو عجز ... وهذه حقيقة هى اليوم فوق مذاهب الشك ، وفى استطاعة الرجل العادى أن يعلم صدق هذا باللاحظة والاستقراء .. » .

ونحن نقول إن هذه حقيقة لا شك فيها .

ولكننا نقول إنها ليست كل الحقيقة ، أو ليست بالحقيقة التى تستغنى عن الرجوع بها إلى جملة الحقائق فى الملكات الروحية والجسدية .

ولعلنا نستعجل الغاية التى نرمى إليها بالإشارة إلى حقيقة أخرى مجسمة لا شك فيها . فما القول مثلا فى الإنسان الذى يقبل على الجسد وحده فيجعله أصلب من الفولاذ وأقدر على حمل الأثقال وجرها من الفرس والبعير ؟ أيقال إن هذا الإنسان قد زاد قوة الروح بزيادة قوة الجسد ؟ أيقال إنه مثل يحتذيه كل إنسان ولا يصيب الأمة نقص فى الملكات إذا اقتدى به كل فرد من أبنائها ؟

لا يقال ذلك ، ولا يقال مع ذلك إنه مثل ضار وخيم العاقبة على أبناء الأمة ، بل يقال إنه لازم ومطلوب ومعقول ، وأن « القصد الحيوى » فى تربية الإنسانية يسمح للرياضة البدنية أن تصطفى لها أفراداً من هذا الطراز ، ويسمح للرياضة الروحية أن تصطفى لها أفراداً من طراز آخر ، ولا تسمح لهذه ولا لتلك بتعميم حكمها على جميع الآحاد .

هذا « القصد الحيوى » هو الحقيقة الكبرى التى تقابل تلك الحقيقة المبسوطة فى كتاب الأستاذ .

فالملكات الإنسانية أكثر وأكبر من أن ينالها إنسان واحد .

ولكنها ينبغى أن تنال . فكيف يمكن أن تنال ؟

إنها لا تنال إلا بالتخصص والتوزيع ، ولا يتأتى هذا التخصص أو هذا التوزيع إذا سوينا بينها جميعاً فى التحصيل ، وألزمنا كل أحد أن تكون له أقساط منها جميعاً على حد سواء .

ولا يقتصر القول هنا على الملكات العقلية أو الروحية التى لا يسهل إحصاؤها ولا تحصيلها ، ولكننا نعم به هذه الملكات ومعها ملكات الحس والجسد ، وهى محدودة متقاربة فى جميع الناس .

فهذه الملكات الجسدية — فضلا عن الملكات العقلية والروحية — قابلة للنمو والمضاعفة إلى الحد الذى لا يخطر لنا على بال ولا نصدقه إلا إذا شهدناه

وقد رأينا ورأى معنا ألوف من أبناء هذا البلد رجلا أكتع يستخدم أصابع قدمه فى أشياء يعجز الكثيرون عن صنعها بأصابع اليدين : يكتب بها ويشعل عيدان الثقاب ويصنع بها القهوة ويصبها فى الأقداح ويشربها ويديرها على الحاضرين ، ويسلك الخيط فى سم الإبرة ويخيط الثوب المزق ، ويوشك أن يصنع بالقدم كل ما يصنع باليمين أو باليسار .

ورأينا ورأى معنا ألوف من هذا البلد لاعبي البلياردو فى المسابقات العامة يتسلمون العصا ثم لا يتركونها إلا بعد مائة وخمسين إصابة أو تزيد ، ولعلهم لا يتركونها إلا من تعب أو مجاملة للاعبين الآخرين ، وهم يوجهون بها الأكر إلى حيث يريدون ، ويرسلونها بين خطوط مرسومة لا تدخل الأكر فى بعضها ، ولا تحسب اللعبة إذا لم تدخل فى بعضها الآخر . بحيث لو قال لك قائل إن هؤلاء اللاعبين يجرون الأكر بسلك خفى لجاز لك أن تصدق ما يقول .

ورأينا من يقذف بالحربة على مسافات فتقع حيث شاء ، ورأينا من ينظر فى آثار الأقدام فيخرج منها أثراً واحداً بين عشرات ولو تعدد وضعه بين المئات ، ورأينا من يرمى بالأنشوطة فى الحبل الطويل فيطوق بها عنق الانسان أو الحيوان على مسافة أمتار .

هذه هى الملكات الجسدية المحدودة ، وهذه هى آماد الكمال الذى تبلغ إليه بالتخصص والمرانة والتوزيع .

فما القول إذا حكمنا على الناس جميعاً أن يكسبوا أعضاءهم ملكة من هذه الملكات ؟

إننا نخطىء بهذا أيما خطأ ونعطلهم به عن العمل المفيد .

ولكننا نخطىء كذلك كل الخطأ إذا عاقبنا إنساناً لأنه أتقن ملكة من هذه الملكات الجسدية ، ولو جار فى نفسه على ملكات أخرى يتقنها الآخرون .

فاذا كنا جاوزنا بالقوى الجسدية حدودها المعهودة بالمرانة والتخصيص فما الظن بالقوى الروحية أو العقلية وهى لا تتقارب فى الناس ولا تعرف الحدود .

وإذا كان طالب القوة الروحية يجور على جسده فلما ذا نلومه وننحى عليه ونحن لا نعاقب اللاعب إذا جار على روحه أو عقله فى سبيل إتقان لعبة أو تدريب عضو أو تزجية فراغ ؟

إذا لنا من يجور على حسده لأنه يضر الناس إذا اقتدوا به أجمعين فمن واجبنا أن نلوم كل ذى ملكة وكل ذى عمل وكل ذى ملكة وكل ذى فن وكل ذى رأى من الآراء ... فما من واحد بين هؤلاء إلا وهو يضر الناس إذا اقتدوا به أجمعين .

ومما لا جدال فيه أن نوازع الجسد تحجب الفكر عن بعض الحقائق الاجتماعية فضلا عن الحقائق الكونية الصفاة .

ومما لا جدال فيه أن شواغل العيش وهموم الأسرة عائق عن بعض مطالب الاصلاح فى الحياة اليومية ، فضلا عن الحياة الإنسانية الباقية على مر الدهور .

ومما لا جدال فيه أن طالب القوة الروحية كطالب القوة البدنية له حق كحق المصارع ، والملاكم ، وحامل الأثقال فى استكمال ما يشاء من ملكات الإنسان ، ولسنا على حق إذا أخذنا عليه أنه جار على جسده أو لذات عيشه ، لأننا لا نلوم المصارع إذا نقصت فيه ملكة الفن أو ملكة العلم أو ملكة الروح .

لو أصبح كل الناس مصارعين لفسد كل الناس .

ولكن لا بد من المصارعة مع هذا ، ولا بد من المتفرغين لها إذا أردنا لها البقاء .

ولو أصبح الناس كلهم متصوفين معرضين عن شواغل الدنيا لفسدت الدنيا وبطل معنى الحياة ومعنى الزهد فى الحياة .

ولكن لابد من هذه النزعة فى بعض النفوس ، ولا قصر عن الشأو الأعلى فى مطالب الروح ، وفقدنا ثمرة « التخصص » أو ثمرة « القصد الحيوى » الذى ينظم لنا ثروة الأرواح وثروة العقول وثروة الأبدان .

* * *

فنحن لا نفند الحقيقة التى بسطها الأستاذ القسيمى فى كتابه الجرىء على الباطل .

ولكننا نقابل حقيقته بالحقيقة التى توازنها وتتمم لها موازينها ونقول إن الإفراط فى العناية الروحية كالإفراط فى العناية الجسدية بلاء إذا عم جميع الناس ، ولكن البلاء الذى هو أعظم منه وأقسى على الناس جميعاً أن يبطل فيهم « الاختصاص » ولو كان الإفراط من مستلزماته ، لأن « الإنسانية » كلها تستفيد من زيادة ملكاتها ، وهى لا تزيد إلا بنقص فى بعض الآحاد المعدودين .

عباس محمود العقاد